آراء المحدثين في نشأة النحو ـ عرض ونقد

✍ . د. كمال حامد عبد الله (★)

المقدمة

الحمد لله القائل في كتابه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ ﴾ (1) والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد ، وهدى الأمة إلى سبيل الرشاد ، سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه ، وعترته الميامين إلى يوم الدين .

لما كان الغرض من التأليف كما تعارف عليه أسلافنا على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وه ي إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص فيتممه ، أو شيء مغلق فيشرحه ، أو ش يء طويل يختصره من دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق فيجمعه ، أو شيء مختلط فيرتبه ، أو شيء أخطأ فيه صاحبه فيصلحه (2). عليه فقد هدف الباحث أن يقف على ، آراء المحدثين في نشأة النحو العربي ، ناشداً جمع ما تفرق ، مع دراستها والموازنة بينها ، محاولاً تصحيح بعض الآراء وخاصة آراء المحدثين .

وتأتي أهمية الكلام عن تاريخ النحو ، من أهمية النحو نفسه ، والحقيقة أن الحديث في تاريخ النحو هو الحديث في تاريخ أمة ، فهل يسع ذلك مقال ؟ ؛ فلذا

(★) أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة بحري.
(1) سورة يوسف الآية:2.
(2) حاجي خليفة ، كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ، ط استانبول ، 1360 ه ، 1 / 35 .

آثر الباحث أن يقصر حديثه في مبحثين:

المبحث الأول : يتناول أوّلية وضع النحو ، وفيه مطلبان ، الأول : تناول أسباب نشأة النحو، أما الثاني : فقد جاء بعنوان : أول من وضع النحو .

أما المبحث الثاني : فقد أجاب عن سؤال كثر فيه المراء بحق وبغير حق ، ألا وهو : هل تأثر نحونا العربي بالثقافات والتيارات الأجنبية ؟ .

وحاول الباحث أن يوظّف المناهج التاريخية والوصفية والتحليلية ، بغرض الوصول إلى نتائج لعلها تكون جديدة ، تسهم في خدمة قضايا اللغة العربية .

وأقول ما أكثر الذين كتبوا في نشأة النحو من العرب والمستشرقين ، قديماً وحديثاً بل هل تركوا للباحث من متردم ؟ لكن هذا لا يثنيه ، أن يتناول الموضوع ، ناشداً الأصالة والعمق والجدة والابتكار ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وقبل أن يغور ، الباحث في تضاعيف هذا البحث ، يجدر به أن يلتمس مقدمة عن نشأة النحو وبواعث وضعه ودواعيه .

المبحث الأول

أوّلية وضع النحو

المطلب الأول : أسباب نشأة النحو

عاش العرب في الجزيرة العربية بمنأى عن غيرهم غير مختلطين ، إلا لماماً ، وقد حافظوا على لغتهم العربية التي اتسمت بالفصاحة وجمال البيان لا تشوبها شائبة تكدر صفوها من غائلة اللحن ، ولحرصهم على تأدية اللسان العربي أداءً سليماً مبر أً من العيوب ، كانوا يرسلون صغارهم إلى البواد ي ، ليترعرعوا في كنف الأعراب الأقحاح ، ويظفروا بلغة محضة نقية ، من الأدران التي تصيب لغة الحواضر ، وقد أنزل الله تعالى القرآن بلغة نبيه ، محمد ﷺ ، وهو أفصح العرب ، ولم يصطف القرآن الكريم لسان قريش ، دون سائر لغات العرب كهذيل وأسد وكنانة لفصاحة القرشيين وروعة بيانهم وجودة سبكهم وحسن مراميهم في الكلام فحسب ، بل لأنهم كانوا أقدر على التعبير من غيرهم ، وأشد حفظاً لموروثهم ، الذي تزينت به أستار الكعبة ، على الرغم من خلاطهم بغيرهم في أسفارهم التجارية إلى أمصار الشام وأنحاء اليمن شتاءً وصيفاً . ومنذ عهد سحيق كانت أفئدة الناس تهوى مكة ـ ففيها البيت الحرام ـ وتركن إلى أهلها ، فهم سدنة البيت وخدّامه ، فكان من الطبيع ي أن تحتضن قوميات شتى فيهم العرب الخلص،وفيهم من أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي واحتدمت في نفوس هؤلاء لغتان : اللغة ا لعربية ، ولغة آبائهم الت ي فطروا عليها فاختاروا بنت عدنان ، بل اضطروا إليها ، فه ي لغة سواد الناس ووجوههم , ومذ ذاك التنازع بدأ لِيُ الألسنة ، فمنهم من يخطئ فينطق السين شيناً ـ كالأحباش وإلى يومنا هذا ـ ومنهم من يعكس كالفرس ومنهم من يقلب

الحاء هاء كأهل الروم ، ومن هنا دبّ إحساس عميق في نفوس الغُير على العربية في لفت أنظارهم إلى هذا الوضع ـ أي اللحن ـ ، فقد لفت أنظارهم وحسب ؛ لأنه كان نزراً قليلاً يُعد من قبيل الحالات الفردية .

ولما سطع نور الإسلام وفتقت رقعته ، خالطت الحمراء العرب ، واجتمعت الألسنة المتباينة ، فجاء نتاج ذلك لغة فاسدة ، جثمت بكلكلها على صدر العربية فوهنت سليقة العرب ي وضعفت نحيزته ولان جلده ، فهب الغيورون سراعاً لمدافعة ذاك الوبال المستطير،لاسيما بعد أن بدأ يزحف على لغة القرآن الكريم ، فوضعوا النحو ، وهكذا قدر الله أن يسخّر أقواماً لخدمة كتابه العزيز ، فنال العرب لوحدهم هذا الشرف الكبير ، قال تعالى :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] .

واللحن في اللغة يطلق على معان عدة منها :

1- الغناء وترجيع الصوت [2] .

2 - التورية والرمز ، نحو قول القتال الكلابي :

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ـ و وحيت وحياً ليس بالمرتاب

قال الشريف الرضي [3]: (إنما أراد الكناية عن الش يء والتعريض بذكره والعدول عن الإيضاح عنه) .

(1) سورة الحجر :الآية 9.
(2) ابن منظور، لسان العرب ، ط بولاق ،1300 هـ ، مادة لحن .
(3) الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى ، تحقيق ، محمد أبو الفضل ، ط الحلبي 1954 ، ص 1 .

3 - اللهجة الخاصة ، كقول أبي مهدية رداً على اليزيدي حين قال : (ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله) برفع طاعة ، على لغة بزي تميم ، وكان أبو مهدية حجازياً ، ينصب خبر ليس بعد إلا ، فرد عليه اليزيدي قائلاً : (ليس هذا من لحزي ولا من لحن قومي)[1].

4 - البلاغة والفطنة ، كقوله ﷺ:(إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ، أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه)[2] ، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الرواية الأخرى : (فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بع) .

5 - معنى القول وفحواه ، قال تعالى : ﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ [3] .

6 - الخطأ في اللغة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هل كان اللحن بمعنى الخطأ في اللغة معروفاً بهذا المعنى في العصور المتقدمة على نشأة النحو ؟ .

لقد تباينت الآراء في الإجابة عن هذا السؤال لدى المعاصرين . فبينما يرى تمام [4] حسان وحسن عون [5] وعبد الله جاد كريم [6] ، أن ظاهرة اللحن

(1) الزجاجي ، مجالس العلماء ، تحقيق ، عبد السلام هارون ، الكويت 1962 ، ص 2 .
(2) وتمام الحديث : عن أم سلمه ، قالت ن قال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار) أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتب العلمية ن بيروت 2000، كتاب الأقضية ، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ، الحديث رقم 1713.
(3) سورة محمد :الآية: 30.
(4) تمام حسان، الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب،عالم الكتب القاهرة / 2000 ص 23 .
(5) عبد الله الخثران ، مراحل تطور النحو ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط 1993/ ص 23 (نقلاً عن حسن عون ، اللغة والنحو ص 156) .
(6) عبد الله جاد كريم ،الدرس النحوي في القرن العشرين / 47 .

قديمة ، إلا أنها تفشت بصورة ملفتة بعد اختلاط العرب بالعجم ، بعد دخول الإسلام ولم يخل منه عصر من العصور ، حتى الجاهلي نفسه ، فقد رو ي أن الشاعر المفلق سحيم عبد بني الحسحاس كان يرتضخ في كلامه لكنة زنجية ، لا تخطئها الأذن ، يرى المستشرق يوهان فك أن هنالك غموضاً اكتنف هذا الأمر ، حيث يقول: (ولا يزال ينقصنا بعد كل دليل يبين متى نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ في الكلام وأغلب الظن ، أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالمعاجم إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون) [1] ، وأيده في هذا الاتجاه ، الدكتور صلاح رواى بقوله : (ولعل هذا المعنى الأخير للحن وهو الخطأ في اللغة ، قد ظهر متأخراً عن غيره من المعاني، حيث لم تظهر الحاجة إليه إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم ، وتنبه العرب إلى شيوع الخطأ في لغتهم العربية)[2].وقد تصدى لرأي المستشرق يوهان فك ، عبد الله الخثران، حيث قال : [3] (وما ذكره هذا المستشرق غير صحيح ، لأن اللحن بمعنى الخطأ كان معروفاً بهذا الاسم في العصور المتقدمة على نشأة النحو ويدلك على ذلك ما أوردناه من قول الرسول ﷺ : (أنا أعربكم في قريش ولساني لسان بني سعد فأنى يأتيني اللحن) [4] . وما

(1) يوهان فك ،العربية ترجمة عبد الحليم النجار ، مكتبة الخانجى ، مصر ، 1959 ، ص 236 .
(2) صلاح رواى، النحو العربي ، نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله ،دار غريب، القاهرة، 2003،ص 12 .
(3) الخثران ،(مصدر سابق) ص 23.
(4) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ط دار الكتب ، 1323ه ، / 3 / 26 ، وينظر : عبد الرحمن السيوطي ، المزهر في علوم اللغة ، تحقيق محمد البجاوي وغيره ، مصر 2 / 246 .

وما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : (لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحن)[1]، وما روي عن أبي الأسود الذ ي ينسب إليه وضع النحو بقوله:(إني لأجد للّحن غمراً كغمر اللحم)[2].

ويلاحظ الباحث أن الخثران استدل بأحاديث وآثار نبوية ، تؤيد ما ذهب إليه كما استدل بها غيره، منها على سبيل المثال : (إن أحد الناس لحن بحضرة النبي ﷺ ، فقال أرشدوا أخاكم فقد ضل) ونحو قوله : (رحم الله امرءاً أصلح من لسانه) ، وقد ذكر السيوط ي في مقدمة شرحه لألفيته ما يزيد على ثلاثين أثراً من أمثال هذا ، ما بين مرفوع إلى النب ي ﷺ وموقوف عن الصحابة رضوان الله عليهم ومقطوع عن التابعين رحمهم الله ،وعقب على ذلك بأنه لم يصح في هذا الباب شيء عن النبي ﷺ) [3] .

ويقر الباحث بوجود آثار وأدلة تؤيد ما ذهب إليه من قبل تمام حسان ومن بعده جاد كريم من ذلك مثلاً :

1 - كان لرجل بالبصرة جارية تسمى ظمياء ، فكان إذا دعاها قال : يا ضمياء ، فقال له : ابن المقفع : قل يا ظمياء ، فناداها يا ضمياء فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً ، قال له:أهي جاريتي أم جاريتك ؟[4].

(1) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين ، تحقيق ، محمد أبو الفضل، ط نهضة مصر ، 1950 ، ص 23 .
(2) ابن قتيبة/ عيون الأخبار، دار الكتب بمصر 1930، 2/ 158. والغمر: بالتحريك، ريح اللحم ومايعلق باليد من دسمه.
(3) جلال الدين السيوطي ، المطالع السعيدة في شرح الفريدة، تحقيق ، د. نبهان ياسين حسين ، دار الرسالة للطباعة، بغداد 1977، 35/1.
(4) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق ، عبدالسلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة ، 1960 ،2 / 167 .

2 - قول زياد النبطي لغلامه : (من لدن دأوتك إلى أن قلت ل ي ما كنت تصنأ) . أي من لدن دعوتك ما كنت تصنع ؟[1].

ولعل الباحث يسرع فيقول : إن وجود لحن في مجتمع كهذا شيء طبيعي ، فقد جمعت مكة آنذاك بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم ، ومثل هذه الأخطاء لا تعد خطراً في نظر الباحث ، فهي مجرد لغات أصلية ، أثرت في نطقهم لمفردات عربية ، كقلب السين شيناً ، كما هو معروف لدى الأحباش ومثل ذلك لا يقلق، وهذا كله من قبيل الخطأ في الأصوات وبنية الكلمة ولعله من قبيل الأخطاء الصرفية . وإذا قرأنا ما قاله المستشرق يوهان فك : (ولا يزال ينقصنا بعد كل دليل يبين متى نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ في الكلام وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم ...)[2] ، ثم عدنا نتلمس قول أبي الطيب اللغوي : (ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها و ماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجاً وأقبلوا إليه أرسالاً واجتمعت الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ففشا الفساد في اللغة العربية) [3] . نجد أن يوهان فك لم يعد أن يفسر ما قاله ، أبو الطيب اللغوي ، وبهذا يستطيع الباحث أن يؤيد ما ذهب إليه الدكتور روا ي بقوله ـ السابق ـ : (ولعل هذا

(1) نفسه ، 2 / 213 .
(2) أبو بكر الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ، ط الحلبي ، مصر ، ص 1.
(3) ابن قتيبة ، (مصدر سابق) ، 2 /158.

المعنى الأخير للحن وهو الخطأ في اللغة ، قد ظهر متأخراً عن غيره من المعاني ، حيث لم تظهر الحاجة إليه إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم ، وتنبه العرب إلى شيوع الخطأ في لغتهم العربية) .

وقد بدأ اللحن مبكراً ثم تسرب قليلاً ، ونسبة لخطورته فقد حذروا مخالطة من اشتهر به وحددوا أسماءهم : ومنهم : الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد بن صفوان والوليد بن عبد الملك وبشر بن مروان و عبد الله القسر ي وغيرهم ، ومن مظاهر إنكار العرب ونفارهم من اللحن ، أن أعرابيا سمع مؤذناً يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، بنصب (رسول) ، فقال له ويحك يفعل ماذا ؟ [1] . وقال مسلمة بن عبد الملك : (إني لأحب أن أسأل هذا الشيخ ـ يعن ي عمرو بن مسلم ـ فما يمنعني منه إلا لحنه) [2] .

هذا ويمكن تلخيص أسباب نشأة النحو في عاملين أساسين هما :

1 - العامل الديني :

لقد اكتسبت اللغة العربية صفة القداسة الدينية فهي لغة القرآن الكريم وارتباط الدرس اللغوي والنحوي بالكتب المقدسة أمر قديم ، فمن أعظم الواجبات الدينية حفظ كتاب الله من خطر اللحن ، فإذا كان جمع القرآن الكريم يعد الخطوة الأولى للعناية به ، فإن ضبط النص بنقط الإعراب والإعجام واتقاء اللحن فيه يمثل الخطوة الثانية في العناية بالقرآن الكريم والمحافظة على سلامته .

(1) الجاحظ ، (مصدر سابق) ، 2 /171.
(2) الخثران ،(مصدر سابق) ص 23 .

ومن مظاهر اللحن :

1 - سمع أبو الأسود أعرابياً يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾[1] بكسر اللام ، في رسوله ، فقال : لا أظن يسعني ، إلا أن أضع شيئاً أصلح به نحو هذا .

2 - سمع الإمام علي أعرابياً يقرأ الآية (37) من سورة الحاقة:(لا يأكله إلا الخاطئين)، فوضع النحو .

3 - قرأ رجل آية البقرة :﴿ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْ ﴾[2] ، بفتح تاء (تنكحوا) . قال ابن جابان : وإن آمنوا لن ننكحهم.

4 - لحن الحجاج في آية التوبة من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[3] [4]، قرأها برفع أحب والصواب أن تقرأ بالنصب؛لأنها خبر كان ،فإذا صدر مثل هذا من الحجاج الذي شهد له الأصمعي(ت 216 ه ـ) بالفصاحة فكيف بغيره من عامة الناس ؟.

5 - رُوي أن أبا الأسود دخل على ابنته فقالت : يا أبت ما أشدُّ الحر ؟ فقال الرمضاء في الهاجرة فقالت لم أرد ذلك وإنما أخبرتك بما هو فيه الآن . فلما

(1) سورة التوبة الآية:3.
(2) سورة البقرة الآية:221.
(3) سورة التوبة الآية:24.
(4) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق ، محمد العريان ،دار الفكر ، بيروت ، 2 / 308 .

سمع منها ذلك قال لها قولي : ما أشدَّ الحرَّ [1] .

هذا وقد ذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: (أن اللحن في القرآن الكريم كان أكثر من اللحن في غيره،معللاً بأن الألسنة الضعيفة القاصرة لا تستطيع الصعود إلى مستواه العالي)[2].ويرى الباحث أن القدسية التي أولاها المسلمون لكلام الله تعالى جعلهم يهتمون بكشف وقوع اللحن فيه أكثر مما يرد في سائر الكلام فلذا يخيل إلى الناس أن اللحن في القرآن الكريم أكثر مما في سواه والله أعلم.

ولم يقتصر شيوع اللحن على الحواضر ، بل تعداها إلى البوادي . قيل ، إن أول لحن سمع بالبادية قولهم : هذه عصاتي[3]. فلهذا طفق أولو العلم بتدوين اللغة وجمعها واستنباط قواعدها.

وقد أنكر المستشرق فون كريمر ، أن يكون شيوع اللحن من أسباب وضع النحو . إذ يقول : (وهنالك رواية يتناقلها الناس في أغلب الأحيان وبمقتضاها كان تسرب الفساد إلى اللغة العربية في البصرة هو السبب في ضرورة وضع قواعد النحو لإنقاذ اللغة العربية من الاضمحلال والفساد في المستقبل ولا حاجة هنا إلى القول إن هذه الرواية لا يعول عليها إطلاقا)[4] .

وقد اتبع حسن عون سنن من كان قبله كفون كريمر ويوهان فك في نفى

(1) الزبيدى ،(مصدر سابق) ، ص 8 .
(2) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ،ط1 1987، مكتبة الإيمان 1 / 240 .
(3) الجاحظ ، (مصدر سابق) 2 / 172.
(4) الخثران ،(مصدر سابق) ، ص 24 (نقلاً عن فون كريمر، الحضارة الإسلامية ، ص 89) .

وإنكار أن يكون ظهور اللحن مدعاة لوضع النحو ، أو التفكير فيه ، وقد علل لذلك بقوله : (لو كان مجرد اللحن في اللغة مدعاة لوضع النحو لوجدنا على الأقل محاولات فيه أيام النبي ﷺ أو أيام الخلفاء الراشدين إذ إن اللحن موجود في البيئة العربية من ذلك التاريخ) [1] .

وخير ما يقال في هذا الصدد ـ في رأى الباحث ـ أن اللحن أيام النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين كان يسيراً جداً مقارنة لما حدث بعد أن أشرقت الأرض بنور الإسلام ففتحت أكثر الأمصار وبلغ أمر الله مشارق الأرض ومغاربها ؛ لذا فاللحن قبل المد الإسلامي لم يعد خطراً عظيماً ولم يرتق ليكون ظاهرة تقض المضجع بل كان مجرد أخطاء فردية ليست ذا بال .

أما رأيي فك وكريمر ، فيلمحان بهذا التشكيك الوصول إلى رأيهما المعروف في البحث النحوي وهو أن النحو العربي ليس من وضع العرب وإنما هو من وضع الأجانب . والدفع بهذا الزعم ـ في رأى الباحث ـ هو لحاجة في نفس يعقوب ، فالنحو العربي نشأ في رحاب القرآن الكريم ورجالات النحو من القراء المعروفين فهم مشغولون آنئذ بما هو أهم من معمَّيات اليونان وغيرها بل لما ينتهوا بعد من نهلهم لتراثهم الضخم ، والذي فُقد منه أحال نمير دجلة سواداً إبان نكبة التتار ، وقد ناء حمل الذي لم يفقد .

وسيناقش الباحث هذا الزعم في موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله

(1) السابق ، ص 24 (نقلاً عن حسن عون ، اللغة والنحو ، ص 156) .

تعالى .

2 - العامل الاجتماعي :

ظهر جيل جديد من الموالي ومن أولئك الذين ولدوا لأمهات أجنبيات ، فلم تكن ألسنتهم خالصة النطق بالعربية لتأثرهم بلغاتهم الأولى ، فكان هؤلاء في حاجة للوقوف على أغراض اللغة ومراميها التي يمكّنهم ذلك من فهم آي الذكر الحكيم و أحاديث النبي ﷺ .

روي أن زياد اً بن أبيه قال لأبي الأسود :(إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كلام الله)[1]

وكان تعلم العربية مما يرفع قدر الإنسان ويعظم في عين السلطان وتمثل الإعراب جمال للوضيع واللحن هجنة للشريف .

مما سبق كان مدعاة لوضع النحو . فمن وضع النحو ؟ .

المطلب الثاني : أول من وضع النحو :

تباينت آراء القدماء في أوّلية وضع النحو ، حيث دارت على ثلاثة محاور :

الأول : طائفة تنسبه إلى الإمام علي بن أبى طالب وحده . فقد ذكر الوزير علي بن يوسف القفطى ، أنه رأى بمصر بأيدي الوراقين جزءاً فيه أبواب من النحو يجمعون على أنها مقدمة علي بن أبى طالب التي أخذها عنه أبو الأسود

(1) عبد القادر بن أحمد بن بدران ، تهذيب ابن عساكر ، ط مكتبة العربية ، دمشق 7 / 110 .

الدؤلي ، ويرى القفطي أن ذلك رأى الجمهور من أهل الرواية ونسب هذا الرأي إلى المبرّد والرازي [1] والزجاجي [2] والحموي [3] وابن خلكان [4] .

الثاني : طائفة تنسبه إلى التابعي الجليل أبى الأسود ظالم بن عمرو ت 69هـ ، في خلافة عبد الملك بن مروان ، ومنهم ابن سلام الجمحى ت 232هـ ، وهو أسبق الرواة في نسبة وضع النحو إلى أبى الأسود حيث قال : (كان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبا الأسود الدؤلى حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة ولم تكن نحوية فكان سراة الناس يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم) [5].

وممن أكد هذا الاتجاه ابن قتيبة الدينورى ت 296هـ ، الذي نسب لأبى الأسود كتاباً في النحو [6] وكذلك أبو الطيب اللغوي ت 351هـ [7]، ثم أعقبه ، أبو الفرج محمد بن النديم ت 385هـ وقد روى أنه رأى بأم عينه نحو أبى الأسود في قمطر كبير بالحديثة [8] وهى إحدى ضواحي دمشق ، وسار على هذا النهج أيضاً ابن حجر العسقلاني الذي نسب لأبى الأسود وضع العربية ونقط

(1) القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق، محمد أبو الفضل ط دار الكتب ، 1369هـ، 1 / 39.
(2) أبو القاسم الزجاجي ، الإيضاح في علل النحو، المكتبة البلدية ، قرطبة ، ص 89 .
(3) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، دار المأمون ، مصر ، 1353هـ ، 14 / 49.
(4) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق ، إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 2 / 232 .
(5) ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق ، محمود شاكر ، 1 / 12 .
(6) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، دار الثقافة ، بيروت ، 2 / 733 .
(7) أبو الطيب اللغوي ، (مصدر سابق) ، ص 24 .
(8) القصة بكاملها في ، ابن النديم ، الفهرست دار المعرفة ، بيروت ، ص 46 .

المصاحف[1]. ويرى أبو الحسن أحمد بن فارس ت 395ه ـ ، أن النحو العربي والعروض قديمان وأتت عليهما الأيام ثم جددهما هذان الإمامان ؛ أبو الأسود الدؤلى والخليل بن أحمد ت 170ه ـ [2].

وهنالك روايات أخرى تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود الدؤلي ولكن بأمر من الخليفة عمر أو عبد الله بن عباس أو بتوجيه من الإمام علي ـ رضي الله عنهم ـ عندما ألقى إليه صحيفة فيها (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) الكلام اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، ثم قال تتبعه وزد عليه ما وقع لك واعلم أن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وش يء ليس بظاهر ولا مضمر وإنما يتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر) [3].

وقيل أيضاً بأمر من الوالي الأموي على العراق زياد بن أبيه (ت 53ه ـ) ، عندما بعث إليه من يقول له : (اعمل شيئاً تكون فيه إماماً ينتفع الناس به وتعرب به كتاب الله فاستعفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ آية التوبة (أن الله برئ من المشركين ورسوله) بكسر لام رسوله ، فقال ما كنت أظن أن أمر الناس صار إلى هذا فرجع إلى زياد فقال أنا أفعل ما أمر به الأمير

(1) ابن حجر العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ،تحقيق ، على محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط1998 2 / 242 .

(2) أحمد ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ،تحقيق، عمر الفاروق الطباع، مكتبة المعارف ص 13 .

(3) القفطي ، (مصدر سابق) ، 1 / 39 .

فليبغنى كاتباً لقناً يفعل ما أقول فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر فقال له أبو الأسود : (إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحروف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف فإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف فإن اتبعت شيئاً من ذلك غنة ـ أي تنويناً ـ فاجعل مكان النقطة نقطتين) [1].

وقد أشرك الزبيدى مع أبى الأسود تلاميذه ، حيث قال : وكان أول من أصل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز فوضعوا النحو أبواباً وأصلوا له أصولاً فذكروا عوامل الرفع والنصب والجزم ووضعوا باب الفعل والمفعول والتعجب والمضاف ، وكان لأبى الأسود في ذلك فضل السبق وشرف التقدم) [2].

الثالث :طائفة تنسبه إلى أحد تلامذة أبى الأسود وهو نصر بن عاصم 89هـ ، وقيل عبد الرحمن بن هرمز(ت 117هـ) ، حيث كان أحد القراء وأعلم الناس بأنساب قريش . [3]

أما المعاصرون فقد انقسموا إلى طائفتين :

الأولى : لم تخرج عما أجمع عليه الأولون من نسبة الوضع إلى أب ي

(1) يوسف بن أبى سعيد السيرافي ، أخبار النحويين البصريين ، تحقيق ، طه الزيني وغيره، مصطفى الحلبي ، ط1 مصر 1955 ، ص ، 34 .
(2) ابن سلام (مصدر سابق) ، ص ، 11 .
(3) ابن النديم (مصدر سابق) ، ص 20 ، 39 .

لأسود بإيعاز من الإمام علي ، ومنهم : أحمد أمين في أحد رأييه [1] ومصطفى صادق الرافعي[2] والشيخ الطنطاوي[3]وأحمد حسن الزيات[4]وسعيد الأفغاني[5] وعبد العال سالم مكرم [6] و خديجة الحديثى [7]و عبد الله الخثران [8] ومحمد خير الحلواني [9]وصلاح رواي[10] ومحمد المختار ولد أباه [11] وسليمان يوسف خاطر[12] .

الثانية :ويمثلها كارل بروكلمان ويوهان فك وفون كريمر ولشنستر ، ومن العرب الأستاذ أحمد أمين إبراهيم مصطفى وشوقي ضيف ويمكن عرض آرائهم على النحو التالي :

1 -يقول المستشرق كارل بروكلمان : (إن ما نسب لأبى الأسود من دراسات لغوية لا يعدو أن يكون من قبل الأساطير) ويقول أيضاً : (ونحن ندخل لأول مرة في دائرة التاريخ الصحيح مع طبقة أساتذة الخليل وسيبويه)

(1) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 1935 2 / 285 .
(2) الرافعي (مصدر سابق) ، 1 / 77 .
(3) الشيخ محمد الطنطاوي ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، دار المعارف بمصر ، ص 23.
(4) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، دار نهضة مصر ، ص 200 .
(5)سعيد الأفغاني ، من تاريخ النحو ، ص 27 .
(6) عبد العال سالم مكرم ، المدرسة النحوية في مصر والشام في القرن السابع والثامن من الهجرة ، مؤسسة الرسالة ،ط2 1990،ص ، 15.
(7) خديجة الحديثي ، المدارس النحوية ، دار الأمل ، إربد ، ط3 ، 2001 ، ص 48 .
(8) الخثران ،(مصدر سابق) ، ص 43 .
(9) محمد خير الحلواني ، المفصل في تاريخ النحو ، ص 50 .
(10) صلاح رواي ، (مصدر سابق) ، ص 38 .
(11) محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيرو، ط2008،2،ص43.
(12) سليمان يوسف خاطر ، التوجيه النحوى ، مكتبة الرشد ،الرياض ، ص 68 .

.[1]

وأما المستشرق يوهان فك فإنه ينسب هذا العلم إلى المسلمين الجدد ويقصد بهم غير العرب ، قال:(وعلى الرغم من أن هذه الروايات المتفرقة المتضاربة غير تاريخية بالمعنى الصحيح ، فإنها تحتوى على إدراك عميق ؛ لأن اتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لساناً لهم كان هو الدافع الأول للملاحظات النحوية) [2].

واشتط المستشرقان ، فون كريمر ولسنشتر وذهبا إلى أبعد من ذلك ، فيرى الأول ، أن النحو من وضع الآراميين والفرس . أما الآخر ـ وهو واضع مادة (نحو) في دائرة المعارف الإسلامية ـ فيرى أن المادة الأولية لعلم النحو العربي جاءت من المنطق لأرسطو طاليس ، الذي انتهى إلى العرب عن طريق السريان)[3] لكنه في نهاية الأمر يرى أن لأبى الأسود ضلعاً في نشأة النحو لكثرة لكثرة الروايات وتضافرها .

2 -يرى الأستاذ أحمد أمين [4] أن تاريخ النحو في منشئه غامض كل الغموض، فإنا نرى فجأةً كتاباً ضخماً ناضجاً هو كتاب سيبويه ولا نرى قبله ما يصح أن يكون نواة تبين ما هو سنة طبيعية من نشوء وارتقاء وكل ما ذكروه

(1) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد لحليم النجار ، دار المعارف ، مصر ، ط ، 1959 . 123 / 2

(2) يوهان فك ، (مصدر سابق) ، ص 10 .

(3) خديجة الحديثي ، (مصدر سابق) ص 34 .

(4) أحمد أمين ، (مصدر سابق) ، 2 / 285 .

من هذا القبيل لا يشفى غليلاً، وقد عدَّ نسبة وضع النحو إلى الإمام على من قبيل الخرافة ؛ لأن طبيعة زمن على وأبى الأسود تأبى هذه التصاريف وهذه التقاسيم الفلسفية وهو بهذا يشير إلى المصطلحات من نحو الفاعل والمفعول والتعجب وغيرها . ويقول أيضاً (ومن حسن الحظ أن هذا ليس محل اتفاق بين العلماء فمنهم من قال واضع النحو عبد الرحمن بن هرمز ومنهم من قال إنه نصر بن عاصم ت 89ه ـ والقائلون بهذا من غير شك ينكرون نسبته إلى على وأبى الأسود) ويخلص في نهاية الأمر إلى أن النحو بدأ بعبد الله بن أبى اسحق الحضرمي(ت 117ه-) .

أما إبراهيم مصطفى فقد استفتى كتاب سيبويه فلم يجد شيئاً ينسب إلى أبي الأسود ولا إلى من في طبقته أو الطبقتين اللتين بعده وانتهى إلى أن أبا الأسود يتلخص عمله في نقط المصحف لا إعرابه [1].

ويقول الدكتور شوقي ضيف في هذا الصدد[2] :(إن ما نسب لأبي الأسود من عبث الرواة الوضاعين المتزيدين هو عبث جاء من أن أبا الأسود نسب إليه حقاً وضع العربية فظن الرواة أنه وضع النحو وهو إنما وضع أول نقط يحرر حركات أواخر الكلمات في القرآن الكريم) . وقد ألمح أيضاً ببعد نسبة وضع النحو إلى الإمام على بقوله : (وكأنه لم يكن مشغولاً حين ذهب إلى العراق والكوفة بإعداد الجيوش لحرب معاوية ولا كان مشغولاً بحرب الخوارج ، إنما

(1) الحلواني ، (مصدر سابق) ، ص 55 .
(2) شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ط7 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 14 .

كان مشغولاً بالنحو ووضع رسومه وأصوله وفصوله وطبائع الأشياء تنفى أن يكون قد وضع ذلك) . ثم يعود فيقول : (وقد يكون ذلك من فعل الشيعة وكأنهم رأوا أن يضيفوا النحو إلى شيعي قديم فارتفع به بعضهم إلى على بن أبى طالب ووقف به آخرون عند أبى الأسود صاحبه الذي يتشيع له) . وينتهي إلى أن واضع النحو بمعناه الحقيقي هو عبد الله بن أبى اسحق الحضرمي ، كما ذهب إلى ذلك من قبله الأستاذ أحمد أمين .

واتبع الدكتور محمد الشاطر [1] والدكتور إبراهيم السامرائي[2] ابن فارس في رأيه القائل، بأن النحو قديم وأتت عليه الأيام إلا أن أبا الأسود قام بتجديده واستدلا بأدلة منها :

1 -ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : رحم الله امرءاً أصلح من لسانه) ، مفسراً أن إصلاح اللسان هو طريقة النظر فيما كان له قانون .

2 -ما روى عن عمر بن الخطاب قوله : (تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة) .

3 -ما روى في قصة المقرئ الذي أقرأ الأعرابي :﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾[3] بجر رسوله ، بأنه لا يقرئ القرآن إلا عالم بالعربية ، فمن

(1) الخثران ،(مصدر سابق) ، ص 15 .
(2) إبراهيم السامرائي ، المفيد في المدارس النحوية ، دار المسيرة ، عمان ، ط 2006 ، ص 22 .
(3) سورة التوبة :الآية(3).

أين يأتي قانون العربية إذا لم يكن هنالك ضابط وإلا فنطق العرب بالعربية بدون ضابط سواء ، يستوي في ذلك جميعهم ولا يوصف أحدهم فيها بعلم عن غيره .

4 -قصة عبد العزيز بن مروان ت 85ه ـ ، حيث دخل إليه إعرابي وشكا إليه ختنه ـ أي صهره ـ فقال عبد العزيز ومن ختنَك ؟ بفتح النون ، فقال : ختتنى الختان ، فتعجب عبد العزيز من الإجابة المخالفة للسؤال وكلم من حوله فقالوا : الصواب فيها بضم النون (ختنُك) ، فقال عبد العزيز ، والله لا شاهدت الناس حتى أعرف العربية وأقام في بيته جمعة لا يظهر ومعه من يعلمه العربية ثم صلى بالناس الجمعة الأخرى وهو أفصح الناس .

ويختم الباحث آراء المعاصرين بما أورده عبد الرازق الصاعدى بقوله : (إن الدرس اللغوي و النحوي بخاصة لا يعزى في وضعه لعالم بعينه ، إنما هو جملة من الأنظار والملحوظات والإرشادات اللغوية التي أثارها جماعة من التابعين فأسهموا جميعاً بدرجات متفاوتة في إرساء الأسس النحوية الأولى بالمدينة)[1] ويقصد بها المدينة المنورة.

هذه هي مجمل آراء بعض المعاصرين ويمكن مناقشتها على النحو التالي :

1 -نزع المستشرقون إلى نفى وضع أبى الأسود للنحو وإنكاره ليمهد لهم ذلك إلى القول :

إن النحو ليس من وضع العرب ، إنما وضعه الفرس والآراميون أو

(1) عبد الرازق الصاعدي ، أصول علم العربية في المدينة ،مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ،العددان 105 ، 106 ، 1417 ه ، 1987 م ص 381 .

اليونانيون أو السريان ، ضاربين بجميع الروايات الموثوقة التي تخالف مذهبهم عرض الحائط ، لكنهم لم يذكروا دليلاً واحداً يؤيد مذهبهم بل وصفوا تلك الروايات كونها من قبيل الأساطير وفى هذا زيغ وضلال لا يمتُّ إلى المنهج العلمي بصلة .

2 -نضح أحمد أمين ومن بعده إبراهيم مصطفى من بئر كارل بروكلمان ، وعدا نسبة وضع النحو إلى أبى الأسود أو الإمام علي من قبيل الخرافة ونسبا أولية الوضع إلى عبد الله بن أبى إسحق الحضرمي (ت 117ه-) ، ويلمح الباحث من ذلك أنهما أرادا أن يقولا : إنه كلما تأخر تاريخ وضع النحو ، فقد يكون من المقبول تأثره بالفلسفات الأجنبية ، وبهذا يتوصلان إلى نفس نتيجة من سبقهم من المستشرقين بأن النحو ليس من وضع العرب وكأنهم عالة على الآخرين .

وسيأتي مناقشة ذلك قريباً .

أما ما أورده أحمد أمين بأن المصطلحات من نحو الفاعل والمفعول وغيرها ، تعد سابقة لأوانها فقد يكون هذا مقبولاً لدى الباحث،فمن ذلك مثلاً :

أن أعرابياً سُئل : أتهمز إسرائيل ؟فقال إني لرجل سوء ،وقيل له: أتجر فلسطين، فقال إني إذاً لقوي [1] .

وتفسير ذلك لدى الباحث أن هذه المصطلحات نسبت إلى الإمام علي أو إلى أبى الأسود فقد يكون مثلاً : أن أبا الأسود عندما لحنت ابنته بقولها : ما أشدُّ

(1) الجاحظ ، (مصدر سابق) ، 2 / 220.

الحر فهذه صيغة استفهام ؛ لأنها رفعت أشد ، لكنها أرادت أن تتعجب ، فربما نطق أشدَّ بالفتح تصويباً لها ، فجاء المتأخرون ووضعوا هذه الملاحظة في باب التعجب وهكذا يمكن أن يقال في بقية المصطلحات ، ودليل الباحث على ذلك ، ما أورده أبو الطيب اللغوي : (ثم كان أول من رسم للناس النحو ، أبو الأسود الدؤلي...وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ لأنه سمع لحناً فقال لأبى الأسود اجعل للناس حروفاً وأشار إلى الرفع والنصب والجر)[1] وعبارة وأشار له إلى الرفع ...، هي لأبي الطيب مما يدل على أن هذه المصطلحات وُضعت من قبل الرواة والعلماء في الفترة التي تلت أبي الأسود .

ولا يخفى على الباحث أن الوضع المقصود به هنا هو مجرد ملاحظات يسيرة ، في النحو تذكر أو أن لحنة سمعت أو عند فساد كلمة لفظت ومجموع تلك الملاحظات تكون نواة تنبعج وتتطور رويداً رويداً .

ومن نافلة القول أن يوضح الباحث أن تباين الروايات في أولية وضع النحو لا ينفي الأمر جملة ، فماذا نقول إزاء رواية القفطي [2] : (الجمهور من أهل الرواية على أن أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) ورواية ابن عساكر[3]،(وأكثر الناس على أن الواضع له أبو الأسود

(1) أبو الطيب اللغوي ،(مصدر سابق) ، ص 6 .
(2) القفطي ، (مصدر سابق) ، 1 / 39 .
(3) ابن عساكر، (مصدر سابق) ، 7 / 110 .

).

أما ظهور كتاب سيبويه فجأة دون أن يكون قبله قبس يهتدي به ، فهذا رأي يناقض قائله الذي اعترف بفضل أبي الأسود وابتكاره شكل المصحف بقوله: (وواضح أن هذه الخطوة أولية في سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء)[1].

وقريب من رأي أحمد أمين ما ذهب إليه إبراهيم مصطفى الذي بحث في كتاب سيبويه فلم يجد رأياً ينسب إلى أبي الأسود فسارع بإصدار حكمه بأن عمل أبي الأسود مقصور في نقط الإعراب وهذا في رأي الباحث بحث قاصر ، فلماذا نتقوقع في كتاب سيبويه وهو نفسه استمد آراءه من أسلافه كالخليل ويونس بن حبيب ؟ ولماذا نغفل مجهودات نصر بن عاصم ويحى بن يعمر ومن قبلهما أستاذهما أبو الأسود الذي صنع مختصراً في النحو ؟وماذا نقول إزاء ما أنشده الكسائى [2] :

بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمـــر

ومن المعروف أن النحو بدأ بسلسلة متصلة يأخذ بعضها برقاب بعض حتى

(1) أحمد أمين ، (مصدر سابق) ، 2 / 286 .
(2) الزبيدي ، (مصدر سابق) ، ص 15 .

نضج وجني ثمره ممثلاً في كتاب سيبويه ، وغالب ظن الباحث أن جنوح أحمد أمين وصاحبه إبراهيم مصطفى وغيرهما إلى تجاهل الجهود العلمية التي سبقت سيبويه ـ وتلك حلق مهمة في تاريخ النحو كما لا يخفى ـ ربما كانت سبباً كافياً للدكتور عبد العال سالم مكرم أن يؤلف كتابه (الحلقة المفقودة في تاريخ النحو) ، متصدياً لمثل هذه المزاعم .

أما الدكتور شوقي ضيف فقد نفى هو الآخر أن يكون الإمام علي أو أبو الأسود قد وضعا النحو وإنما نُسب إليهما ذلك ، بدافع العصبية وأضاف أن ذلك كان بسبب التخليط والوهم الذي أصاب الرواة فظنوا أن أبا الأسود وضع النحو وإنما وضع حقاً العربية ، ولعل ضيف يقصد بالعربية هنا نقط المصحف .

وللتحقيق من معنى العربية يجدر بالباحث أن يستفتي روايات الأقدمين وسيكتفي بعرض روايتين اثنتين منها ؛ دفعاً للإطالة :

الأولى :

رواية أبي الطيب اللغوي ت 351ه ـ ، ولعله يعد من أوائل من تطرق للحديث عن نشأة النحو وذلك عندما ترجم لأبي الأسود ، قال [1] : (ثم كان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلى ... وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ لأنه سمع لحناً فقال لأبى الأسود : اجعل للناس حروفاً وأشار له إلى الرفع والنصب والجر فكان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من

(1) أبو الطيب اللغوي ،(مصدر سابق) ، ص 6 .

ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام) ، وقال أيضاً حدثنا محمد بن عباد المهلبي عن أبيه أنه سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ :﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ بكسر لام رسوله ، فقال : لا أظن يسعني إلا أن أضع شيئاً أصلح به نحو هذا أو كلام هذا معناه فوضع النحو . قال : وكان أول من رسمه فوضع منه شيئاً جليلاً حتى تعمق النظر بعد وطولوا الباب) .

الثانية :

ولعل هذه الرواية تتحدث بنفسها لتبين أن ليس هنالك فرق بين مصطلحي النحو والعربية لدى المتقدمين من العلماء وه ي [1]: يقول أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت 379ه ـ) (إن أبا الأسود هو أول من أسس العربية ونهج سبيلها ووضع قياسها وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجدهم يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف النصب والرفع والجر والجزم) وينقل عن أبي علي القالي عن أبي إسحق الزجاج عن المبرد (أن أبا الأسود أول من وضع العربية ونقط المصاحف ...) .

ومما سبق يلحظ الباحث أن هذه النصوص بينت شيئين :

الأول : أن ليس هنالك فرق بين مصطلحي النحو والعربية لدى المتقدمين من العلماء .

الثاني : أن النحو والعربية ونقط المصاحف أو ضبطها كل هذا يشير إلى

(1) الزبيدي ، (مصدر سابق) ، ص 13 .

معنى الإعراب والنحو وبين أيدينا كتاب أسرار العربية للأنبار ي وهو في الحقيقة كتاب نحو ـ كما لا يخفى ـ بل إن كلمة أدب كانت تصرف بمعنى النحو ولا نذهب بعيداً فهذا كتاب خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي وهو في الحقيقة شرح لشواهد الكافية في النحو .

إذاً فلا سبيل لأن يقع المبرد ـ وهو أحد أئمة المذهب البصري ـ وغيره في التوهم والتخليط بين مفهومي العربية ونقط المصحف . ثم أليس نقط المصحف من العربية ؟ وهل النقط إلا رفع ونصب وجر وتنوين ؟ ألا تعد هذه خطوة أولى في سبيل النحو ؟وإذا كان الرواة عابثين ووضاعين ومتزيدين فماذا يبقى لنا من التاريخ إذا طبقنا هذا الحكم على أخباره ورواياته ؟ .

هذا وقد ألمح شوقي ضيف [1] ، بأن الإمام علياً كان مشغولاً بأمور الخلافة أو بحربه ضد معاوية والخوارج ، ليصل إلى نفي نسبة وضع النحو إليه ، لكن الباحث يرى خلاف ذلك للآتي:

أ ـ رأى جمهور العلماء ـ كما مر ـ أن الإمام علياً هو أول من رسم للناس العربية .

ب ـ ما امتاز به الإمام علي من ذكاء و وفور عقل وعلم وهذا لا يختلف فيه اثنان ولا تتناطح عليه عنزتان .

ج- أن مفهوم الوضع هنا لا يعدو كونه مجرد إشارات قليلة في النحو تثار

(1) شوقي ضيف ، (مصدر سابق) ، ص 14 .

عند سماع لحن وقع في القرآن الكريم أو الكلام العربي بصفة عامة ، ومثل ذلك في نظر الباحث لا يمكن أن يشغله عن أمور الخلافة لاسيما وأن اللحن لم ينتشر في لحظة واحدة ، إنما بدأ يتسرب إلى الكلام العربي رويداً رويداً ، وبالتالي فإن الملاحظات التي تتعقب هذه الأخطاء قيلت في فترات متراخية ، وقد نسب لسيدنا علي ديوان شعر ، وفوق هذا أنه جمع القرآن مرتباً على حسب النزول وأشار إلى عامه وخاصه وناسخه ومنسوخه وعزائمه ورخصه وسننه وآدابه ، ونبه على أسباب النزول في آياته البينات وأوضح ما عساه يشكل من بعض الجهات . وكان ابن سيرين يقول [1] : (لو أصبت ذلك الكتاب كان فيه من العلم ...) ، وقد ألف صحيفة في الديات وقد أوردها ابن سعد في آخر كتابه المعروف بـ (الجامع) مسندة إلى أمير المؤمنين . ويقول شرف الدين : رأيت البخاري ومسلماً يذكران هذه الصحيفة ويرويان عنها في عدة مواضع من صحيحيهما ، والإمام أحمد بن حنبل أكثر من الرواية من هذه الصحيفة في مسنده .

إذاً فلماذا لم يشغله هذا عن أمور الخلافة وحروبه لتأمين الدولة الإسلامية ؟ وماذا تساوي بعض الملاحظات اليسيرة في النحو إذا ما قورنت بهذه المجهودات العلمية الضخمة لأمير المؤمنين ؟ . و يسارع الباحث فيقول : إن أول من وضع النحو، هو الإمام علي كرم الله وجهه وأخذه عنه التابعي الجليل أبو الأسود الدؤلى ، وإن شئت قل : قام النحو أول ما قام على يد أبى

(1) ابن حجر، الصواعق ، ط دار الكتب العلمية 1983 ، بيروت ، ص 197 .

الأسود بإرشادات من الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ وأكثر الروايات تكاد تجمع على ذلك ، وليس ذلك على أبى الأسود بعزيز ، فقد كان معدوداً في القراء والفقهاء والمحدثين والشعراء والنحاة والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة .

3 ـ أما ما أورده الصاعدي(إن الدرس اللغوي و النحوي بخاصة لا يعزى في وضعه لعالم بعينه) فهذا بلا شك مخالف لطبائع الأشياء ، وإلا فمن الذي شارك الخليل بن أحمد في وضعه علم العروض ؟ ، وأما عزو نشأة النحو في المدينة المنورة فهذا مخالف لما أجمع عليه العلماء ، بأنه وضع بالبصرة للأسباب والدواعي التي ذكرت في صدر هذا البحث وليس هنا داع لتكراره .

المبحث الثاني

تأثر النحو بالفلسفة اليونانية وغيرها

تعد هذه القضية من أكثر القضايا التي أثارت جدلاً واسعاً بين العلماء المعاصرين ، حيث زعموا أن النحو العربي تأثر بالنحو اليوناني أو السرياني أو الفارسي إبان نشأته الأولى ، ويرجح الباحث أن بعض الآراء السابقة

للمعاصرين هي التي فتحت الباب واسعاً لإثارة هذه المسالة وتشعب الآراء فيها ولعل العلامة ابن خلدون يكون أول من فتح هذا الباب بقوله (إن العرب لم يكونوا يعرفون أمر التعليم والتأليف والتدوين في أول أمر ملتهم وكانوا أبعد الناس عن هذه الصنائع ، وأن العجم هم الذين قاموا بهذه الأمور وقد كان العرب فيها تابعين للفرس وللعجم) [1] .

ويبدو للباحث كون بعض العرب أميين فهذا لا ينفي معرفتهم القراءة والكتابة ومن ثم التدوين ، والأدلة على ذلك لا تكاد تحصر ، من ذلك مثلاً : المعلقات التي كانت تعلق على أستار الكعبة ، وكتابة معاهدات العرب إبان حروبهم في الجاهلية ، ثم معارضة المشركين لدعوة النبي ﷺ ومنها مطالبته ـ عليه السلام ـ بأن يأتي بكتاب يتلوه عليهم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [2]. ألا يدل ذلك على معرفتهم بأمر الكتابة والتعليم والتدوين في جاهليتهم ؟.

وربما دفع قول ابن خلدون المستشرق الألماني ميركس أن يزعم أن المنطق اليوناني أثر في النحو العربي وهو من أوائل المستشرقين الذين تطرقوا لهذا الأمر ، ثم توالت التبريكات لهذا الزعم من المستشرقين وتابعيهم من علماء العربية ، وعليه انقسم العلماء إزاء هذا الأمر إلى ثلاث وه ي :

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ط دار الكتب ، 1928 ، الفصل الخامس والثلاثون ، وينظر : الحديثى (مصدر سابق) ص 35 .
(2) سورة الإسراء الآية: (93).

الأولى : يرى أصحاب هذا الرأي ، أن النحو العربي تأثر بالثقافة الأجنبية ؛ اليونانية والفارسية والهندية والسريانية ، ومنهم : بعض المستشرقين : كالألمانيين ميركس وكارل بروكلمان والفرنسي فيشس وغيرهم ، حيث زعموا [1] أن النحو العربي منقول من لغة اليونان ، لأن وضعه في العراق ، إنما كان بعد اختلاط العرب بالسريان وتعلمهم ثقافتهم ، وللسريان نحو قديم ورثوه عن اليونان .

ومن سار على هذا الرأي من العرب :

1 - إبراهيم مدكور الذي قال : (وضع النحو السرياني بمدرسة نصيبين في القرن السادس الميلادي ، ولاشك في أن هذا النحو تأثر بالنحو اليوناني ومنطق أرسطو، ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم ، فيعقوب الرهاوي له شأن في وضع النحو السرياني ، وهو معروف في الأوساط العربية ، وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل ، ولسيبويه ، بل صديق للخليل ومن اليسير أن نتصور أنه تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية خصوصاً وهو يعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأجرومية اليونانية.ثم يسوق الدكتور مدكور [2] بعض أوجه الشبه بين مجموعة من قواعد النحو اليوناني كما في كتاب (الأرجانون) لأرسطو ،

(1) خديجة الحديثي ، (مصدر سابق) ص 36 . نقلاً عن (جيرار تروبو ، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، ص 125) . الطنطاوي ،(مصدر سابق) ، ص 21 .
(2) صلاح رواي، (مصدر ساب) ،ص 32) (نقلاً عن إبراهيم مدكور، في اللغة والأدب ص 44) .

ونظيرتها من النحو العربي كما في كتاب سيبويه ؛ فأرسطو يقسم الكلام إلى : اسم وفعل وأداة ، وسيبويه يقسمه إلى اسم وفعل وحرف بينما الكوفيون يسمون الأخير أداة أيضاً ، ثم يعرض لتعريف كل جزء في الكتابين بما يشير إلى تمام الاتفاق بينهما .

2 - الدكتور محمد عيد : إذ يقول [1]: (الملاحظ أن كلاً من عبد الله بن أبى إسحق وعيسى بن عمر كانا من الموالي فابن أبى إسحق مولى لآل الحضرمي ... وأما الآخر فقد كان مولى لثقيف وقد توفرت لهما دواعي الاختلاط بالأجانب والاتصال بهم ، يضاف إلى ذلك أن كلاً منهما قد عاش في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، فابن أبى إسحق ت 117ه - أو 127ه - وعيسى بن عمر ت 149ه - وهو عصر بداية العلوم بمعناها المنظم ... ثم حقيقة ثالثة هي أن ابن أبى إسحق كما يقول عنه تلميذه يونس بن حبيب ، كان له ذهن ناقد ونظر ثاقب وعقل قوي) .

وبهذا يخلص الدكتور عيد إلى أن هذه العوامل متجاورة تشير إلى أن منشأ الفكرة هو المنطق اليوناني والنحو السرياني .

3 - أحمد أمين ، الذي يرى أنه لما تم للعرب [2] (الاتصال بالآداب السريانية الموجودة في العراق قبل الإسلام والتي كانت لها قواعد نحوية كان من السهل أن توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية) .

(1) محمد عيد ، أصول النحو العربي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط5 2006 ، ص 71 .
(2) أحمد أمين ، فجر الإسلام ،المكتبة العصرية ، 2006 ، 1 / 175 ، 226 .

4 - مصطفى صادق الرافعي والدكتور حسن عون [1] حيث ذهبا إلى أن الحركات مستمدة أصلاً من النحو السرياني .

5 - الدكتور محمد غالب عبد الرحمن ، الذي يرى أن الصلة بدأت مبكرة بين الدراسة النحوية والمنطق الأرسطي والفلسفة الإغريقية وفى هذا يقول [2]: (والحقيقة الثابتة أن نشأة النحو العربي عاصرت ظهور الفرق الإسلامية من أهل سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج وغيرهم وكانت روح الخلاف والمذهبية مسيطرة على التفكير العلمي إذ ذاك ، حتى إن هذا الجدل والنقاش قد انتظما أسواق البزازين وقوارع الطرقات في بغداد . كما كانت الفلسفة والمنطق اليونانيان مما شاع عند تلك الفرق الإسلامية ...) .

الثانية : يرى أصحاب هذا المذهب [3] أن وضع النحو عربي محض ، حيث نشأ بالعراق في صدر الإسلام نشأة عربية على مقتضى الفطرة للأسباب التي دعت إلى وضعه والتي تندرج في مجملها تحت ظهور اللحن وشيوعه في لغة العرب ثم تدرج به التطور تمشياً مع سنة الترقي ، حتى كملت أبوابه غير مقيس على لغة أخرى ، لا في نشأته ولا في تدرجه وفى هذا يقول الفيلسوف الفرنسي دى بور [4] : (إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربي ، لما فيه

(1) الرافعي ، (مصدر سابق) ، 1 / 105 ، وينظر : خديجة الحديثي ، (مصدر سابق) ص 36 شوقي ضيف ، (مصدر سابق) ، ص 20 .
(2) محمد غالب عبد الرحمن ، مباحث في مشكلات النحو العربي وسبل علاجها ، ط 2003 ، ص 20 .
(3) الطنطاوي ،(مصدر سابق) ، ص 21 .
(4) صلاح رواي، (مصدر سابق)، ص 32) (نقلاً عن إبراهيم مدكور ، في اللغة والأدب ص 44) .

دقة في الملاحظة ، ونشاط في جمع ما تفرق ، وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به) .

ومن سار على هذا الاتجاه من المحدثين :

1- عبد العال سالم مكرم ، إذ يقول [1] : (لا أستطيع أن أرد القياس في النحو إلى تأثره بمنطق أرسطو في كل الوجوه ؛ ذلك لأن القياس ظهر أول ما ظهر في الدراسة النحوية بحكم الفطرة والسجية فمن الطبيعي أن يقارن الإنسان بين الأشياء فيعرف فيها المشتبه فيها والمختلف ويبحث عن الأوصاف التي تلتقي فيها الأمور المتشابهة والظواهر المتقاربة ، ثم يستنبط بعد ذلك من هذه الظواهر أو من هذه الأشباه والنظائر مقاييسه وأصوله ... ومن البده ي أن قياس عبد الله بن أبى إسحق قياس الفطرة والطبيعة لا قياس المنطق والجدل ، وذلك لأن منطق أرسطو لم يكن العرب يعرفونه إذ ذاك وعبد الله بن أب ي إسحق ت 117هـ ، أي قبل أن يعرف العرب منطق أرسطو) .

2 - الدكتورة خديجة عبد الرازق الحديثى [2] واستدلت على ذلك بالرجوع إلى أقوال المؤرخين الذين ترجموا للنحاة منذ زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبي الأسود الدؤلي وكانوا قريبي عهد بهم من أمثال ابن سلام والزبيد ي وأبي الطيب اللغوي والسيرافي وابن النديم وكلهم يسمونه علم العربية وينصون على أن واضعه عربي وأن الذين حثوا على وضعه عرب وأن أصوله عربية

(1) عبد العالم سالم مكرم ، (مصدر سابق) ، ص 254 .
(2) خديجة الحديثي ، (مصدر سابق) ص 36 .

وه ي القرآن الكريم وكلام العرب.

3 - الدكتور شوقي ضيف الذي نفى إثبات شيء من ذلك ، حيث قال [1]:(وحاول بعض المستشرقين أن يصلوا بين نشوء النحو في البصرة والنحو السرياني واليوناني والهندي غير أنه لا يمكن إثبات شيء من ذلك إثباتاً علمياً وخاصة أن النحو العربي يدور على نظرية العامل وهى لا توجد في أي نحو أجنبي) . والدكتور عبد الرحمن السيد [2] ، الذي ذهب إلى أن النحو عربي وواضعيه عرب .

4 - الدكتور مهدي المخزومي ، حيث ذكر في كتابه [3] ، (وما يقال بتأثر النحو قبل عهد الخليل وفي عهده بالنحو السرياني وبالمنطق ، إنما هو إيغال في الحدس وتمسك بأهداب الفروض).

5 - ومن المستشرقين الفرنسي جيرار تروبو الذي دلل على أصالة النحو العربي بأدلة موضوعية تتمثل في[4] :

أ ـ اختلاف تقسيم الكلمة في النحو العربي (اسم وفعل وحرف) عما يقابلها في النحو اليوناني فهي مقسمة إلى ثمانية : الحرف والمجموع والرباط والفاصلة والاسم والكلمة والرقعة والقول .

(1) شوقي ضيف ، (مصدر سابق) ، ص 20 .
(2) الحديثي، (مصدر سابق)ص 36 . نقلاً عن (عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية، ص 96) .
(3) مهدي المخزومي ، الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومناهجه ، ط 1960 ، بغداد ، ص 74 .
(4) خديجة الحديثي ، (مصدر سابق) ص 36 . نقلاً عن (جيرار تروبو ، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ، ص 137) .

ب - لم يستطع النحاة القدامى أن يعرفوا النحو اليوناني بطريقة مباشرة ، إذ أنهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجم إلى اللغة العربية .

ج - قام بإحصاء المصطلحات اللغوية والنحوية والصرفية والصوتية في كتاب سيبويه ، فوجدها ألفاً وستمائة لفظ متداولة في لغة العرب ، وخلص إلى خطأ المستشرقين ومن تابعهم الذين اعتمدوا على بضعة مصطلحات وصلت إلى العشرة ليبرهنوا على مضارعة النظام العربي للنظام اليوناني.

الثالثة : وهذه الفئة يمثلها المستشرق ليتمان الذي ينحو منحاً وسطاً بين المذهبين السابقين ، حيث يرى أن النحو وضع ابتداء عربياً محضاً ، ثم تأثر بعد ذلك بالفلسفة اليونانية ، حيث يقول [1]: (اختلف الأورباويون في أصل هذا العلم فمنهم من قال إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب ، وقال آخرون ليس كذلك ، وإنما كما تنبت الشجرة في أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب وهذا هو الذي روي في كتب العرب من زمن ونحن نذهب في هذه المسألة مذهباً وسطاً ، وهو أنه أبدع العرب علم النحو في الابتداء ، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه ، لكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق ، تعلموا أيضاً شيئاً من النحو . .. وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف ، قال سيبويه : فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وهذا تقسيم أصل ي

(1) الطنطاوي ،(مصدر سابق) ، ص 22 . (نقلاً عن محاضرات ليتمان) .

، أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط، وهذه الكلمات ترجمت من اليوناني إلى السرياني ، ومن السرياني إلى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت) .

من خلال الأقوال السابقة يلاحظ الباحث ما يلي :

1 - أن غالب الذين ذهبوا إلى تأثر النحو العربي ـ أيام نشأته الأولى ـ بالثقافة الأجنبية لم يسوقوا دليلاً واحداً يؤيد رأيهم ، وما ذكروه في هذا الشأن هو من قبيل الحدس والظن ، وها هي عباراتهم كقولهم : إن النحو العربي منقول من لغة اليونان ، لأن وضعه في العراق ، إنما كان بعد اختلاط العرب بالسريان وتعلمهم ثقافتهم ، .أو نحو، فيعقوب الرهاوي له شأن في وضع النحو السرياني ، وهو معروف في الأوساط العربية ، وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل ، ولسيبويه ، بل صديق للخليل ومن اليسير أن نتصور أنه تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية ونحو : وقد توفرت لهم دواعي الاختلاط بالأجانب والاتصال بهم .

إلى غير ذلك من العبارات التي تطلق بصورة عامة دون تحديد موضع التأثر أو كيفيته.

2 - أن تشابه بعض مصطلحات القواعد العربية ببعض المصطلحات اليونانية ، ليس دليلاً كافياً على تأثر العرب بغيرهم ، لأن الفكر الإنساني واحد وبالتالي قد يكون هنالك نقاط اتفاق أو اختلاف في كثير من الألفاظ ، ألا ترى أن

كلمة أب أو أم تكاد تكون مشتركة أو ـ بعض حروفها ـ بين كثير من لغات العالم وقس على ذلك كثير من المفردات ومنها ، الاسم والفعل والحرف . وهذا إذا سلمنا جدلاً بوجود بعض التشابه بينهما . والصحيح أن ليس هنالك تشابه بين هذه المفردات في الثقافتين العربية وغيرها من اللغات الأجنبية ، لأن لكل منها نظاماً خاصاً تسير عليه .وهذا ما أكده بعض المنصفين من المستشرقين كجيرار تروبو وليتمان اللذين قاما بعمل مقارنة في الثقافتين العربية واليونانية وخلصا إلى هذه النتيجة .

3 - السؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هو هل كان ابن أبى إسحق ت 117ه - ، متأثراً في أقيسته بالفلسفة اليونانية كما ذكر ، لاسيما وأنه يعد أول من مد القياس وشرح العلل[1] .

للإجابة عن هذا السؤال يجدر بالباحث أن يعرض بعض أقيست ابن أبى إسحق ومن ثم الحكم عليها وبهذا تنجلي المسألة ، من ذلك مثلاً :

أ ـ اعتراضه على الفرزدق في قوله[2] :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ـ من المال إلا مسحتاً أو مجلفُ

حيث رفع الشاعر لفظ مجلف وكان القياس يقتض ي النصب لأنه معطوف على منصوب.

ب ـ كما اعترضه أيضاً على قوله : (هاجياً ابن أبى إسحق) :

(1) الزبيدي ، (مصدر سابق) ص 31 .
(2)السابق ، ص 32 .

فلو كان عبد الله مولى هجوته ـ ولكن عبد الله مولى موالياً

حيث اعترضه على نصب (موالياً) وكان القياس أن تكون مجرورة .

ج - منع صرف لفظ (زيد) إذا كانت علماً لمؤنث [1].

وعليه يمكننا أن نتساءل ، أين أثر الفلسفة اليونانية في الأمثلة السابقة ؟

أليست هذه بأقيسة فطرية ؟ ، إذاً من نافلة القول أن ينفـي الباحث تأثر ابن أبي إسحق بالفلسفة اليونانية .

ومما سبق يخلص الباحث إلى التالي :

1 - أن النحو العربي ـ إبان نشأته الأولى ـ لم يتأثر بالثقافات الأجنبية ، وما ذكر عكس ذلك ، فهو من قبيل التعميم والحدس والتخمين .

2 - أن أقيست النحو وتعليلاته ، مردها علوم الدين من فقه وغيره ، قال السيوطي : (وأصول اللغة محمولة على أصول الشريعة) [2] .

3 - أن تأثير الثقافات الأجنبية على النحو العربي حدثت في وقت متأخر ، أي بعد أن اكتمل ونضج وآتى أكله لاسيما بعد أن أرسى الخليل قواعده ووضع رسومه .

ويتساءل الباحث ، لماذا لا نستنطق الشعر فيما شجر من خلاف في علوم العرب ؟

(1) سيبويه ، الكتاب ، تحقيق ، عبد السلام هارون ، ط 1985 ، دار القلم بمصر ، 3 / 292 .
(2) السيوطي ، الاقتراح في أصول النحو ، تحقيق ، محمد حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1998 ،ص 54 .

ربما جنينا من هذا خير وفير وإجابات إن لم تكن شافية ، فعلى أقل تقدير قد تكون مقبولة . وعليه يمكننا أن نقرأ مع البحتري ت 284هـ قوله[1] :

كلفتمونا حدود منطقكم ـ والشعر يغزي عن صدقه كذبه

وكقصة الأعرابي [2] الذي وقف على مجلس الأخفش ت 215هـ ، فيسأله : ما تسمع يا أخا العرب ؟

فيرد الأعرابي : (أراكم تتكلمون في كلامنا بما ليس فيه) فيتمثل الأخفش بقول عمار الكلبي حين عيب عليه بيت من الشعر :

ماذا لقيت من المستعربين ومـــن تأسيس نحوهم هذا الذي ابتدعوا

إن قلت قافية فيما يكـــــون لها معنى يخاف ما قاسوا وما صنعوا

قالوا لحنت وهذا الحرف منخفـض وذاك نصب وهذا ليــس يرتفع

وحرشوا بين عبد الله واجتهـــدوا وبين زيد فطال الضرب والوجع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقـهم وآخرين على إعـــرابهم طبعوا

(1) البحتري، ديوان، تحقيق ، عبد الرحمن البرقوقي ، مكتبة هندية بالموسكي بمصر ، 1911، 1 / 38

(2) أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تحقيق ، محمد على النجار ، 1 / 239.

ولعل بيت البحتري يبين اهتمام العلماء بالثقافات الأجنبية وانحراف النحاة عن جادة روح اللغة . ويتبادر في هذا الصدد إلى ذهن الباحث سؤال،لعله يثير موضوعاً أكثر أهمية في هذا الصدد، ألا وهو متى تأثر النحو العربي بثقافات الأجانب ؟ . بالطبع من الصعوبة بمكان أن يتم تحديد تاريخ معين ، فتاريخ النحو كما يقول الأستاذ أحمد أمين غامض كل الغموض في نشأته الأولى ، ولكن قد حاول بعض المعاصرين تحديد القرن الذي انتشرت فيه الفلسفة اليونانية وغيرها حيث يقول[1] : (وفى بداية القرن الرابع الهجري تسربت إلى المناهج النحوية مذاهب المتكلمين وأشكال المنطق الأرسطي وأخذ البحث في العلل طابعاً يتجاوز التفسير الوصفي لقواعد اللغة،وهذا ما تناوله الزجاجي في كتاب الإيضاح حيث قال: إنها على ثلاثة أضرب ، علل تعليمية وعلل قياسية وعلل جدلية) .

ويلمح الباحث من النص السابق نفـي صاحبه تأثر النحو بالفلسفة اليونانية أيام نشأته الأولى . ويرى الباحث أن ولوع النحاة ـ مؤخراً ـ بالفلسفة الأجنبية ، كان له أثر واضح في صعوبة النحو ونفور الناس من مدارسته ومما زاد الأمر تعقيداً وغموضاً ؛ طرق تدريسه ومناهجه التي تتسم بالقصور والعقم ، مما حدا بالشاعر التيجاني يوسف بشير أن يقول [2]:

(1) محمد مختار، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمي ، ط 2 ، 2008 ، ص 37
(2) التيجاني يوسف بشير ، ومطلع قصيدته : (عن المعهد العلمي) : السحر فيك وفيك من أسبابه ـ دعة المدل بعبقري شبابه ديوان إشراقة ، ، دار الجيل ، بيروت ط 1987 ، ص 77 .

ولقد لقيت من عنت الزيود مشاكلاً - وبكيت من عمرو ومن إعرابه

وعليه يرى الباحث ضرورة إعادة النظر في قواعد العربية مادة ومنهجاً ولا يريد أن يستطرد في هذا الأمر ؛ حتى لا يخرج من دائرة البحث .

النتائج :

لقد خرج البحث بعدة نتائج أهمها :

- أن اللحن وهو الخطأ في اللغة ، قد ظهر متأخراً عن غيره من المعاني ، حيث لم تظهر الحاجة إليه إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم ، وتنبه العرب إلى شيوع الخطأ في لغتهم العربية

- أن شيوع اللحن كان السبب الأساس لوضع النحو لاسيما عندما بدأ يزحف على لغة القرآن الكريم.

- النحو العربي نشأ في رحاب القرآن الكريم ورجالات النحو من القراء المعروفين والنحو عربي محض مستمد من إرث العربية .

- أن القدسية التي أولاها المسلمون لكلام الله تعالى جعلهم يهتمون بكشف وقوع اللحن فيه أكثر مما يرد في سائر الكلام ؛ فلذا يخيل إلى الناس أن اللحن في القرآن الكريم أكثر فيما سواه .

- أول من وضع النحو، هو الإمام علي كرم الله وجهه وأخذه عنه التابعي الجليل أبو الأسود الدؤلى.

- أن تأثير الثقافات الأجنبية على النحو العربي حدثت في وقت متأخر ، أي بعد أن اكتمل ونضج وآتى أكله لاسيما بعد أن أرسى الخليل قواعده ووضع

رسومه .

وعليه يوصي الباحث بتصفية النحو من شوائب الفلسفة ويدخل فيها الأقيسة والعلل الجدلية التي لم تدر بخلد العربي مع اقتصار وصف اللغة ، أي التعويل على السماع ، واعتباره الخيار الأول.